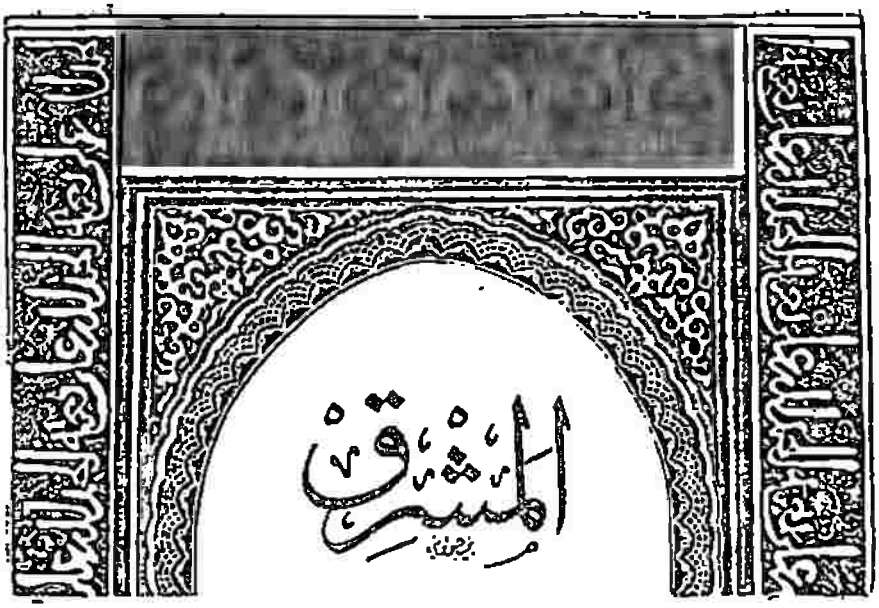

تموز ١٩٣٠

القديس يوحنا فم الذهب

وثورة انطاكية

بقلم حضرة القس عبد المسيح فهر

١

في سنة ٣٧٩ جلس ثودوسيوس الكبير في عرش المملكة الرومانية. وما هلَّ شهر كانون الثاني من سنة ٣٨٧ حتى كان مضى سنون اربع على عقده ولاية الملك لابنه ارقاديوس، وتسميته اياه اوغسطوساً. فاراد حينئذٍ ان يحتفل بعيد اكراماً لولي عهده ووارث ملكه، وبعيد ايضاً له لمرور عشر سنوات على جلوسه في عرش الملك، فقدَّم عيده سنة وجمع العيدين في عيد واحد. وكانت العادة جارية في ذلك الزمان ان يوزع القياصرة على غاكرهم طائفة من المال (stipendium) خوفاً من تمرّدهم عليهم، ورغبةً في توطيد اركان ملكهم، وحرصاً على نشر راية السلام في انحاء المملكة. ولكن بذل المال، واجزال الهبات للفيالق كان علّة في زيادة الضرائب، وداعياً الى التثقيل على كاهل الرعية. وحينئذ

وطّن ثودوسيوس النفس على زيادة الضرائب ليتسنى له اقامة سجال الحرف على الجيش وامرائه ايام العيد، ويستطيع سدّ الثلمة، ثلمة النفقات الجسيمة، التي فتحها عليه حرب القوط. ولما رسم بزيادة الضرائب، اضطربت المملكة باسرها، وامتعضت الاقاليم باجمعها. بيد انها ادّت كلها الضريبة طائعة او كارهة: وبسبب ذلك استشاط الشعب الاسكندري على الولاة وشتموهم في الملعب، وتهدّدوهم بخلع نير القسطنطينية، وتسليم مصر الى مكسيموس القيصر الروماني.

وفي ٢٦ شباط جمع والي انطاكية مجلس الندوة، وقرأ عليهم امر الملك المؤذن في زيادة الضرائب. وما اتى على قراءته حتى ثار الشيوخ من مواضعهم مغضبين، وشرعوا يحتجون على هذه الزيادة الجديدة. ثم عمدوا الى شاراتهم فنزعوها ورموها في الارض وداسوها بارجلهم، وخرجوا على عجل وانبثوا في حياء المدينة ينادون بالويل والثبور، ويقولون ان القيصر يتقاضى الانطاكيين مالاً وافراً ليس في طوقهم تقديمه، وان باعوا انفسهم وبذلوا كل ما يملكون. وما هي الّا سويعة حتى رنّ صدى هذه الشكوى وهذا التذمر في اطراف المدينة، فاستشرى الشعب من عند آخره، واشتعلت نيران الفتنة. فهرع العقلاء من فورهم الى الاسقف فلابيانوس، وطلبوا اليه ملحين ان يتوسط بينهم وبين العاهل ليخفف الضريبة. غير ان ألسُن لهيب الفتنة[1] اندلعت بسرعة وخاب كل امل في اخمادها، اذ سطا الطغام والرعاع لفورهم على الحمامات وعاثوا فيها سلباً ونهباً، وخرجوا من هناك وهجموا على دار الولاية، وطفقوا يتهدّدون ويتوعدون ويحطّمون ويكسّرون. فشت اذ ذاك قلوب الحكام وامراء الجيش في صدورهم خوفاً، وانقطعت ظهورهم رهبة وفرقاً، وحاروا في امرهم

---

١) ان تيلمون في الحاشية ٢٧ من حياة ثودوسيوس يجعل ثورة انطاكية سنة ٣٨٧. وذكر القديس فم الذهب في خطبته ١٦ ان تلك السنة كانت الثانية من وعظه. فاذن تيلمون مصيب لان يوحنا ارتقى الى درجة الكهنوت سنة ٣٨٦ في اوائلها. ولكن بعضهم جعلوها سنة ٣٨٨ استناداً الى احتفال الملك بعشر سنين من ملكه. غير ان الملك تقدّم عيده سنة. هذا وان ثودوسيوس في سنة ٣٨٨ لم يكن في القسطنطينية اثناء الصوم بل كان في تسالونيكي.

مبلسين لسرعة انتشار الاضطراب والهيج ، وفشوّ الهرج والمرج ، ولم يتجه لهم رأي يعتمدون عليه حتى انهم لم يتمكنوا من القرار . فكان سكوتهم وخوفهم واستتارهم سبباً لتشجيع الثوار وتنشيطهم . ولمّا طلبوا الى زعيم الرماة ان يسرع الى حراسة الشوارع والطرق ، تثاقل ، بل لم يلبِّ الطالب . وفي تلك الاثناء تألب في الازقة والسكك والجوادّ جماهير اقوام أخلاط من غرباء ، وعملة ، ومشوذين ، وبطالين ، ومجّان ، واولاد ، وعمدوا الى صور الملك المنقوشة في وجوه المباني العمومية ، ولطخوها بالوحل ، وتسلّق الاولاد الاعمدة وقلبوا التماثيل . ولما انتهوا الى الساحة العمومية عمدوا الى تمثال ثودوسيوس المنصوب فيها وركسوه ثم حطموه ، بل انهم لم يبقوا على تماثيل امرأته[1] واولاده ، فربطوها بالامراس ، وجرّوها في الاوحال وهشموها ، وبعد ذلك رموا بها في العاصي . واتفق ان احد الشيوخ ابى مشاركتهم في عملهم ، فيمّموا داره وجعلوها للوقت طعمة للنار . وما مضت ساعات وحان الظهر ، حتى سكن الهيج وهدأ الاضطراب ، وسادت على اثره السكينة وخيّم الهدوء ، وادرك الثائرون وخامة عملهم وحرج موقفهم ، وفطنوا لتباعات ما جنت ايديهم من الشرّ وما تعرضوا له من شدة العقاب والأسواء المتعددة ؛ لان البُرُد تجهزت للسفر في اليوم عينه ، وخرجت مسرعة الى القسطنطينية ، حاملة الى الملك اخبار الفتنة وتفاصيلها .

حينئذٍ خاف أولو الامر من القصاص والعزل فاشتدوا على معاقبة المجرمين ، واصبحت المدينة كلها رهينة الخوف والاضطراب ، ولاذ بالفرار الاغنياء والفقراء ، والرجال والنساء ، والشيوخ والاحداث ، وعاذوا بالمدن المجاورة والآجام ، واستكنوا بالجبال والآكام ، فهلك منهم خلق كثير[2] ، لان اللصوص الذعّار بطشوا باولئك اللاجئين بطش الاسود بالحملان ، واثخنوا فيهم قتلاً ، حتى كانت كل يوم اشلاء القتلى تذهب الى البحر طافية فوق مياه النهر . ومن بعد الظهر هبّ ولاة الامور يتعقبون النافخين في نار الفتنة ويزجّون

١) فلاسيلا (Flacilla) الملكة المتوفاة .

٢) فم الذهب : المجلد الثاني ، ص ٢٢٠

بهم في اعماق السجون ، وامتدت ايديهم الى الابرياء ، فغصّت اذ ذاك سجون المدينة بالافنـاء والاوباش ، والكرام والاشراف . امّا الشيوخ واولادهم فحبسوا في دار الولاية ، وبقوا فيها الى حين وصول اوامر الملك بالعفو . ولمّا دجا الليل انتشر على المدينة غمامة كثيفة من الخوف والهلع ، فبات من بقي هنالك بليل أنقد . وما انبثق نور الفجر ، حتى ابكر الولاة والقضاة الى مجالسهم ، وشرعوا يستعرضون السجناء ويستخبرون منهم عن اخبار الثورة وعمن اشترك فيها ، وقد تذرّعوا بجميع ضروب العذاب والنكال من قتل وضرب وحرق وطرح للوحوش وجلد توصلاً الى بغيتهم ، وارصدوا امام باب دار المحكمة فرقة من الرماة منعاً للرجال الذين اسرعوا للتشفع في والديهم واصدقائهم ، واقصاء للنساء اللواتي وثبنَ الى ذلك المكان للتوسل في انقاذ ازواجهنّ واولادهنّ ، وهنّ باكيات منتحبات . والحاصل ان ذلك النهار كان من اشد الايام هولاً . ولمّا اتى المساء ، رأى النساء ، بينما كنّ واقفات خارج الباب صامتات واجمات ليس في وجوههنّ رائحة دم ، اعيانَ المدينة مكبولين مكتوفين مساقين الى الموت ، فعلَتْ اصواتهنّ ، وفاضت شؤونهنّ ، واستبقت عبراتهنّ ، وغُمي على كثير من الوالدات والزوجات والفتيات . ثم أفقنَ وأسرعنَ الى موضع النكال ليشاهدن بامّ العين مقتل اولادهنّ وازواجهن وآبائهنّ واخوتهنّ . وحين وصولهنّ ابصرن ما هالهنّ ، وارعش مفاصلهنّ ، فأغمي عليهنّ مرة اخرى فحُملن الى بيوتهنّ فوجدنها موصدة في وجوههنّ ، لان الولاة كانوا سبقوا وختموا ابوابها ، فاضطررن الى الطواف في احياء المدينة ، وطرق الابواب باباً باباً ليجدنَ لهنّ مأوى[1] . ودامت الحال هكذا خمسة ايام ما انقطع فيها التقرير ولا التعذيب ، فهلك ابرياء ومجرمون واولاد عديدون . على ان هذه الكارثة نبّهت في الانفس عاطفة الدين ، فتغيّر في لحظة عين ذلك الشعب المتهالك في الملذّات والافراح ، واختراف ثمار المسرّات ، تغيّرًا عظيماً ، وخفّ الى الكنائس والمعابد والتفّ حول القديس فم الذهب يسمع كلامه وتعازيه .

---

١) الكتاب المذكور : ٤٥ و ١٢٤ .

وكان القديس لا يألوا جهداً في الذهاب الى الوالي ليدافع عن المتهمين[1] ، وفي زيارة العائلات وتعزيتهن عن فقد من فقدن ، وهو حزين كئيب. وقد عزم في تلك الاثناء على لزوم الصمت . ولكنه لما رأى شدة حزن الانطاكيين ، صعد المنبر مطرقاً ممتقع اللون ، مقبوض القلب ، مكدّر الخاطر ، وشرع يقول بكلام يملك القلوب ويستعبد الاسماع :

« ماذا اقول لكم وباي الكلام اخاطبكم في هذه الايام المشؤومة ، ايام الحزن والكآبة ؟ اني احتاج اليوم الى دموع لا الى كلام ، والى ندب لا الى خُطَب ، والى رفع الادعية الى الله لا الى مواعظ . لقد اثمنا ، ولا دواء لبلايانا العظيمة الجسيمة . . . فاسمحوا لي اذن ان ابكي شرورنا . والآن ، بعد سبعة ايام انقضت في الصمت والسكوت ، افتح فاي بالنطق لاندب معكم مصيبتنا العامة . مَن حسدنا ايها الاعزاء على سعادتنا ؟ ومن اين اتى هذا الانقلاب ؟ . . . اني لا اكاد استطيع فتح فمي والنطق بالكلم ، لان الحزن بمنزلة لجام يعتقد لساني ويحبس كلامي . ما كان اسعد مدينتنا قبلاً ، وما اشقاها الآن ! كل يوم كانت الجماهير تملأ الساحة العامة ، وتمور فيها كانها خشرم نحل يدندن حول خلاياه ، وكان الجميع يغبطون هذه المدينة المنعم عليها ، التي كان يحييها وينعشها كثرة السكان . والآن امست الخلية خالية ، لان الخوف بدّد السكان كما يبدّد النحلَ الدخان . . . اننا ما رأينا بعد نار البرابرة ، ولا جه العدوّ ، ومع ذلك نحن فريسة لنفس العذاب الذي يقاسيه الاسرى . . . انطاكية منذ ايام احتست بهزّات الزلازل ، واليوم هي القلوب تهتزّ وترتجف . حينئذٍ ترعزعت أُسس البيوت ، واليوم انفس السكان تتضعضع من شدة القلق ، اذ ان الموت ماثل على الدوام نصب اعيننا ، وحياتنا اصبحت عبارة عن خوف دائم . . . السادة والعبيد اختبئوا في عقر بيوتهم ، واصبحوا كالاسرى يتأملون من شدة قلقهم قائلين : على مَن قُبض اليوم ؟ وهامة مَن نُتفت ؟ . . . يا تلال البسي الحداد ، ويا جبال نوحي معنا ! فلتدعُ الخلائق كافة لتُشاركنا في نكبتنا . المدينة العظيمة ، عاصمة الشرق ، على

---

١) الكتاب المذكور : ١٢٥ .

عدّة الاستئصال من على وجه الارض ! المدينة الحافلة بالسكان فقدت فجأة اولادها ولا معين لها ! اننا امتهنا من لا مثيل له على الارض ، لان الملك زعيم اهل الارض ورأسهم . فلنلجأ اذن الى المالك في السماء ، ونسأله العون . ولكن اذا اخطأنا الأيد العلوي فما من كفّارة لذنوبنا .»[1]

فبهذه الكلمات وامثالها كان القديس يعزّي ويشدّد وينشط ويوبّخ الانطاكيين الذين استحوذ عليهم الخوف والقنوط ، واضطر الى القاء عشرين موعظة في اثناء ايام الخوف . وكان يذكّرهم بسرعة زوال الدنيا وبطلانها ، ويغريهم بالفضيلة ، ويلومهم ويقرّعهم على تناسيهم واجباتهم ، ويبيّن لهم حرج موقفهم . قال :

« لنتصرفنّ بحكمة ايها الاعزّاء في كل الامور . واعلموا ان الفقر لا يضرّنا بل يفيدنا خيراً ... اني سائلكم فاجيبوني : مَن كان افقر من ايليا ؟ ولكنه مع فقره فاق الاغنياء ... أما ان ملك اسرائيل الذي كان يملك ويحوز قناطير الذهب كان لا يزال يتهافت باحترام على سماع هذا الفقير المعدم الذي كانت كل ثروته رداء فقط ، ولكن هذا الرداء فاق بلمعانه بزفير الملوك ، ومغارة العديق كانت اجل من قصور السلاطين ... ايليا ترك رداءه لتلميذه ، وابن الله لدى صعوده ترك لنا جسده . ايليا تجرد من ردائه ، ويسوع المسيح اخذ معه ما ترك لنا . فلا نفشلنّ ، بل لنكفنّ عن البكاء والخوف من مصائب الدنيا .»[2]

(له صلة)

---

١) الخطبة الثانية في الشعب الانطاكي ، من المجلد عينه ، ص ٣٠ وما يليها .

٢) ٣٤ .